- ١٦ -

المعمار العربى فى صقلية

انتهى الحكم العربى فى صقلية قبل أن يخرج العرب من إسبانيا بأربع مئة عام، وقد كانت هذه الجزيرة ميدانا واسعًا لمعارك متواصلة بين الشعوب القديمة، فالتقى على أرضها يتقاتلون أهالى سرقوسة، وأثينا، وقرطاجنة، والإغريق، والرومان والقبائل المتبربرة Los Barbaros وأصبحت فى العصور التالية ساحة لحروب مدمرة بين النورمانديين، والألمان، والأرجونيين، والفرنسيين. ورغم أن بقايا هامة من الفن الإغريقى، ذى الطراز الدوريدى[١]، أفلتت من تلك العواصف الأولى، مثل معابد مدينتى أجرجنت Agrégent، وسجست Segeste ومسارح سرقوسة وتورمينا، فإن المبانى العربية، وهى أحدث من ذلك كله بأكثر من ألف عام، اختفت كلها تقريبا، ولم تخلّف وراءها أى أثر، وكل ما نملكه عنها أخبار قليلة وغائمة، ولكنها كافية لكى يكون هناك حد أدنى من التفكير فى أنها كانت كثيرة وعظيمة. وكتاب «حياة سان فيلاريت»، وولد فى صقلية (١٠٢٠ - ١٠٧٠ م)، وألف أيام حكم المسلمين الجزيرة، أطرى كثيرا من المساجد الإسلامية، وأعجب بعظمة وجمال الأبنية التى كانت فى مدن الجزيرة الرئيسية، غير أنه يضيف إلى ذلك : إن الآثار القديمة تفوقها جميعا[٢]. وطبقا لابن حوقل فإن بالرم فى منتصف القرن العاشر الميلادى كان فيها أكثر من ثلاث مئة مسجد، بينها واحد يتسع لسبعة آلاف شخص[٣]، ويشير قرار اتخذه روجر الثانى فى عام ١٠٩٠ م إلى الخرائب المتسعة، والأنقاض الكثيرة، فى مدن المسلمين وقصورهم، وعن أطلال العمارات العديدة التى بنوها بفن رائع، لحياة أنيقة ومترفة[٤]. نعم كانت كبيرة بعد دمار

---

(١) نسبة إلى دوردا Doridaموطن اليونانيين القدامى، ويطلق على المرحلة الثالثة فى تطور أساليب المعمار الإغريقى. (المترجم)

(٢) Acta Santa, Bollandi, I, April, 607

(٣) أمارى، الكتبة العربية الصقلية، ص٦.

(٤) Pirrhi Sicilia Sacra, 1, 695

شامل أحدثته حرب استمرت ثلاث سنوات، حاول فيها المسيحيون أن يستردوا الجزيرة، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن نستنتج من مؤلفات الإدريسى، وابن جبير، وهوجو فلكاندو Hugo Falcando والكتاب الثلاثة من العصر النورماندى، وجانب كبير من صقلية لا يزال يحتفظ بطابع الثقافة العربية حتى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وقريبا من نهايته. وقد ذكر الأولان فى حديثهما كل المدن والمساجد والحمامات تقريبا، وأبنية أخرى فخيمة، وأطرياها كثيرا.

من الصعب أن نفترض أن كل هذه المنشآت، أو الجانب الأكبر منها، بنى فى الفترة القصيرة التى أعقبت استيلاء المسيحيين على الجزيرة، والصورة التى رسمها فلكاندو لمدينة بالرم تذكرنا بقوة أنها تشبه ما بقى لنا حتى يومنا هذا من غرناطة وإشبيلية، ويشير إلى العرب على أنهم المبدعون الأصليون لتلك المفاتن الشهيرة، يقول :

«من يستطيع أن يطرى بحق، ويصف فى صدق، العمارات المدهشة، فى هذه المدينة الرائعة، جمال أشجارها، وخضرتها الدائمة، وحلاوة نوافيرها، وعيونها الكثيرة، وقنواتها العديدة، تحمل الماء وفيرا لسد حاجات كل سكانها؟. من يستطيع أن يزن بحق مجد فجها الرائع، يمتد إلى أربعة أميال بين أسوار المدينة والجبال؟. يا للوادى السعيد، الجدير بالثناء على امتداد كل العصور، يفيض بكل ألوان الشجر، ويمتلئ بكل أنواع الثمر، ويضم كل خيرات الأرض! إنه ليأسر الأرواح بفتنة منظره، ويستولى على المشاعر بروعة جماله، ويسحر العقول ببهاء طبيعته، ومن يراه مرة لا يستطيع أن يفلت من إساره، أو يهرب إلى مكان آخر لقوة جاذبيته. إنك ترى هناك، بفضل خصوبة الأرض القوية، الكروم تمتد فى نضارة فاجرة، والبساتين فسيحة الأرجاء، غنية بالثمار، متنوعة الفواكه، وأبراجا عالية لحراسة الحدائق، ولإمتاع الحواس حتى تغيب عن الوجود، والنواعير سريعة الدوران، قواديسها تعلو وتهبط بالتناوب، ترفع الماء من العيون، وتملأ القنوات، والأحواض والبرك القريبة منها، وخلالها يتدفق الماء إلى كل الأرجاء. فإذا انتبهنا فيما بعد إلى الثمار المتنوعة، ترمى بها أشجار الفواكه، رأينا الرمان أخفى ثماره الرقيقة بين قشوره الخشنة، حفاظا عليها من رداءة الطقس، والليمون فى حالات

ثلاث مختلفة، يبدو من خلال قشرته ملتهبا، للونها وأريجها، ولبه الريان بعصيره الحامض داخله يفيض طراوة، بينما الجزء الأوسط منه يحتظ بمناخ معتدل، ويستخدم هذا الليمون لتتبيل الأطعمة. وهناك البرتقال، عصيره لذيذ حلو منعش، وشكله جميل فاتن ساحر، كما لو كان قد خلق لتلذ به الأعين، وتسكن إليه الأنفس، وعندما يتم نضجه يسقط وحده لثقله، لأن الأغصان لا تستطيع أن تتحمله، ولأن ثمرا جديدا ينمو مكانه، ومن الضرورى أن يدع الذاهب مكانا للقادم، أى أننا نستطيع أن نرى فى الشجرة الواحدة «الطرحة» الأولى فى ألوانها الزاهية، على حين أن الثانية لما تزل خضراء قانية، وزهور الثالثة تنبىء بأنها فى الطريق. وهذه الشجرة تفيض دائما بالجمال والنضارة، لا تعرف الشيخوخة تأتيها مع الشتاء، وتعوقها عن الإثمار، ولا الثلوج تسرق منها أوراقها، فهى مخضرة دائما، وتعكس فى أعيننا روعة الربيع وفتنته. وماذ أقول عن الجوز واللوز، وعن التين فى أنواعه المختلفة، وعن الزيتون وزيته وبه يطهون الطعام، ويشعلون القناديل؟ وماذا أقول عن أشجار الخروب العالية المعمرة، وفاكهتها الخسيسة تتملق فى تفاهة حلوة مذاق الريفيين والصبيان؟ ولكن أكثر من هذا : توقفت أتأمل رءوس النخيل السامقة، والبلح يتدلى من الشماريخ تنبثق من أعماق قمتها. فإذا هبطت بنظرك اكتشفت على بعد حقولا مديدة، زرعت قصبا رائعا، يطلق عليه السكان هنا اسم قصب السكر، لحلاوة ما بداخله من عصير، ومن نافلة القول، فيما يبدو، أن أشير إلى الفواكه الشائعة بيننا، والتى توجد هناك أيضا»[٥].

إذا تصورنا هذه الجنة الزاهرة، تتوجها القصور والحصون وقباب المساجد، والمآذن السامقة الأنيقة، وكلها تسبح فى بحر من الخضرة، والبيوت الريفية بأحواضها ونوافيرها الموشوشة، مندسة بين أيك البرتقال، أو غابات الريحان، ثم نظرنا إلى البحر أزرق عميقا، من القمم العالية، صعبة المنحدر، يغطيها نبات السيزال والصبر والصبار، أصبح لدينا فكرة عن جزيرة صقلية على أيام العرب، وحتى فى عصر النورمانديين بعدهم. وسرعان ما سحرت هذه الأرض الجنوبية بجمالها هؤلاء الأخيرين، فاتخذوا منها مقرا لهم، وأقاموا فيها بيوتا ثابتة، وانتزعوا

---

(٥) Hugonis Kalcandi, Hist. en Los Redum Sicularum scriptores, Francofurti, 1579, pag. 640

أنفسهم من حميا الهمجية، وطالما دفعتهم إلى تخريب عمارات جميلة، وبدأوا يرممون أو يعيدون بناء القصور المدمرة، وإقامة أخرى جديدة. وفى ايطاليا نفسها، وبخاصة فى شواطى الجنوب، وكانت على صلة مستمرة وتجارة لا تتوقف مع صقلية، استراح الناس إلى المبانى العربية، وأخذوا يقلدونها، وهكذا نرى - مثلا - حتى اليوم فى مدينة رفلو Ravello الصغيرة، قريبا من أملفى Amalfi، وهى مدينة كانت قوية فى عصور أخرى، كثيرا من القصور المهدمة، ذات طابع شرقى كامل.

وليس ثمة شك فى أن المعماريين العرب هم الذين بنوا للنورمانديين تلك القصور المعدة للتمتع، على أرقى مستوى، بكل لذاذات الحياة الحسية، الأصفى أناقة. ولم يكن لديهم أى سبب يدفعهم لكى يبتعدوا عن الطراز القديم المعروف، أو تعديله، لأن الذين يقومون بالعمل، تطبعوا بالتقاليد والعادات الشرقية. ومن ثم تابعوا فى رسم وتخطيط العمارات الجديدة، وفى التفاصيل والزخارف، المثل والنموذج الذى كانت تقوم عليه القصور الريفية الإسلامية. ولم تحتفظ الجزيرة بأى من هذه القصور، حتى ولا واحد منها، يمكن أن نقول عنه فى ثقة كاملة أنه يعود فى بنائه إلى العصر العربى، ومع ذلك نجرؤ على التكهن بأن طراز الأبنية التى أقيمت بعد العرب كانت على هدى من عماراتهم الأولى.

إن آثار صقلية القديمة العظيمة، التى تثير اليوم إعجابنا، والتى قاومت عوامل الفناء، ولا تزال تحتفظ بدقتها حتى الآن، لا يمكن أن تكون قد استخدمت، فيما يبدو، بأية طريقة، نموذجا يقلده المسلمون ويحتذونه. لقد كان من السهل عليهم أن يستغلوا الأعمدة، وأجزاء أخرى جوهرية فى المعابد الإغريقية، ولكنهم لم يفعلوا هذا دون شك. وكانت مادة البناء التى يفضلونها نوعا من الأحجار يسمونه «الكدان Kaddan»، ومن هذه الأحجار المصنوعة بنيت كل مدينة بالرم[٦]. وفضلا عن ذلك أيضا، يبدو فى ضوء ما نستنتجه من التنقيب عن كثير من بقايا الأسوار أنهم كانوا يستخدمون الآجر.

---

(٦) ابن حبير، طبعة رايت، ص٣٣٦.

وتتميز المبانى الصقلية بالارتفاع والصلابة، وكثافة الجدران، وباستخدام العقود أحيانا بكثرة، وأحيانا بقلة، ولكنها تميل دائما إلى أن تكون عقودها مدببة، وتشبه إلى حد ما الطراز المعمارى المستخدم فى مبانى القاهرة[٧]، وهو ما يمكن تفسيره بسهولة فى ضوء العلاقات الودود التى كانت قائمة بين مصر وهذه الجزيرة. أما فى الداخل، وفى تخطيط البيوت الريفية، أو المنيات، فهى تشبه ما يجرى عليه الحال فى إسبانيا، وعرضنا له من قبل: ساحة تحيط بها الممرات، وحولها الأعمدة والعقود، والغرف، ونوافير تصب فى أحواض من الرخام، ومن هذه وتلك يتكون منزل جميل بين جنان تعبق بأريج الزهور، وغنية بمختلف الثمار، وتزهو بخضرة استوائية تقريبا. ونجد فى الزخرفة أيضا رسوما متعددة الألوان من الفسيفساء، وقبابا فى شكل خلايا النحل، ونقوشا متشابكة من المصيص، ونتوءات بديعة تغطى الجدران، ذات ألف شكل وشكل.

وتعكس قصيدة **عبد الرحمن الطربانى**، وهى فى مدح مدينة فافرة Favora، وأتينا عليها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[٨]. صورة دقيقة للترف المصفى، والفتنة الباذخة، فى بيوت صقلية الريفية، ومع ذلك فإن الأبيات لا تقدم لنا مزيدا من المعلومات عن حالها، وإنما شيئا جديدا عن جداول المياه التى تجرى عبر البساتين، وعن بركة كبيرة فى وسطها، وعن جزيرة فى وسط البركة، غُرست بأشجار البرتقال، وعن كشك وسط الجزيرة. وكان هذا البيت الريفى، أو المنية، قريبا من بالرم، تحت سفح جبل جريفون Grifone، على مقربة من نبعين كانا يسميان على أيام العرب فافرة الصغرى، وفافرة الكبرى، وكلمة فافرة Favara معناه نبع فى اللغة الايطالية. ويتحدث ابن جبير عن هذا البيت الريفى، ويدعوه قصر جعفر[٩]، ويمكن أن نستنتج من التسمية أن الذى بناه هو الأمير جعفر ابن يوسف، وحكم من ٩٩٨ إلى ١٠١٩ م، أو مسلم آخر يحمل هذا الاسم، ولو

---

(٧) طبعا كان هذا حتى مطلع هذا القرن، قبل أن تأتى موجات المعمار الحديث غير المنظمة، وغير الموجهة، على معظم معالم القاهرة الأثرية والقديمة. (المترجم)

(٨) ترجمت الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب فى مجلد واحد بعنوان «الشعر العربى فى اسبانيا وصقلية» وسيصدر هذا العام أيضا، والقصيدة فى الفصل الخاص بصقلية. (المترجم)

(٩) ابن جبير ٣٣٤.

أن فزلوس Fazellus يعتبر أن الملك روجر هو الذى أقامه[١٠]، والحق أنه لم يصنع شيئا أكثر من ترميمه.

وطبقا لكل الظواهر أيضا فإن بنيامين التطيلى، وزار صقلية عام ١١٧٠ م، يتحدث عن فافرة عندما يقول: «ويوجد نائب الملك فى بالرم وقصره يسمى الحصن، ويضم هذا القصر فى جنانه كل أنواع الأشجار المثمرة، وجدولا كبيرا يجرى وسط قناة مبنية، وبركة يطلق عليها اسم البحيرة، وتوجد فيها أسماك كثيرة. وقوارب الملك مزينة بالذهب والفضة، ويذهب إليها دائما للتسلية والراحة، وكذلك تفعل حريمه»[١١]. وحتى الآن يمكن أن نرى بقايا هذا القصر على بعد نصف فرسخ من بالرم، قريبا من كنيسة سان شيرو San Ciro.

وهناك فى نبع فافرة الأكبر، حيث تتدفق المياه من صخرة تخترقها كهوف كثيرة، توجد ثلاثة عقود من الآجر حتى يومنا، ويمكن أن نلحظ تحتها الجدار الحجرى لبحيرة كبيرة. ومن هذه البحيرة جاء دون شك اسم البحر الحلو Mardolce والذى يطلق اليوم خطأ على النبع، وحتى اليوم لا يزال اسم البحيرات يطلق فى دمشق على مخازن المياه العامة، والبرك فى البيوت، والمياه فى أحواض الرخام. وفى الجانب المقابل لهذه البحيرة الصناعية، وهى جافة الآن، فى اتجاه شاطئ البحر، وقريبا منه، توجد بقايا أنقاض القصر الواسعة، ويعتقد سكان بالرم أن ثمة طريقا تحت الأرض، يمتد منه إلى القصر الملكى، وكان يوجد فى وسط المدينة، ويعرف باسم حصين بربروس، وهو بناء كبير مربع، فى وسطه ساحة كبيرة، ومحاريب فى الجانب الخارجى من الجدران، وبعض غرفه نصف خربة، وسقفها فى هيئة قباب يشير إلى أنه كان موقدا للحمامات الساخنة.

● قصر المنصورية:

وهو، طبقًا لرواية ابن جبير، من بين القصور، التى تجعل من عاصمة صقلية أشبه بعذراء جميلة، تحيط عنقها بعقد من الماس، على نحو يتيح لملك النورمانديين

---

(١٠) FFazellus, en Rev. Sic scriptores, 160.

(١١) The itineraty of Benjamin of tudela, ed. Asher, 1, 166.

أن ينتقل من مكان إلى آخر، مارًّا بالقاعات والأكشاك والنوافير[١٢]. وليس بوسعنا أن نذكر شيئًا مؤكدًا عن المكان الذى يقوم فوقه، لأننا نعرفه من خلال الشعر العربى فحسب، ومن القصائد التى وصلتنا، وقيلت فى إطرائه، وتُظهر إلى حد كبير كم كانت القصور العربية فى صقلية تشبه قصور عرب الأندلس إلى حد بعيد، فى الرسم والتخطيط بعامة، وفى الصصفات المميزة على حد سواء، ولقد قلتُ القصور العربية قاصدًا، لأنها أقيمت على طراز مشرقى، ومن المحتمل جدًّا أن الذين قاموا على بنائها من المهندسين المعماريين المسلمين، وإذن فمن الحق أن نطلق عليها هذا الاسم حتى ولو بُنيت فى عهد النورمانديين، وإحدى هذه القصائد أشرت إليها من قبل، وتوجد فى الجزء الثانى من كتابى[١٣]، والأخرى لابن بشرون، وهى :

لِلـــــهِ منصـــــورية ... راقتْ ببهجتهـــا البهيَّـه
وبقصرِهـا الحَسنِ البِنـا ... الشكل والغُرَف العليّـه
وبـــوحشهـــا ومياهـــا ... الغزُرِ العيون الكوثَرِيّه[١٤]
وقـــد اكتستْ جنّاتُهـــا ... من بَيْنهـــا حلَلا بَهيّـــه
غـطَّا عبـير تـرابهـا ... بمـدبجـات سنـدسيـه
يهـدى إليـك نسيمهـا ... أفـواه طيب عنبـريَّـه
واستـوسقت أشجـارهـا ... بـأطايب الشجـر الجنيه
وتجـاوبـت أطيـارهـا ... فى الصبح دابًا والعشيّه
وبهـا رُجار سما العلى ... ملك الملوك القيصـريّـه
فى طيب عيش دائم ... ومشاهد فيهـا شهيّه[١٥]

كانت هناك حدائق إذن فى الضواحى القريبة، وهذا إذا لم تكن فى داخل القصر

---

(١٢) ابن جبير، طبعة رايت، ٣٣٦.

(١٣) انظر صفحة ٨٤ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٣.

(١٤) يوجد نهر، أو بحيرة، أو بركة، فى الجنة تدعى الكوثر، ولا أعرف عنه شيئًا غير أن هناك سورة فى القرآن تحمل اسم الكوثر لانها تبدأ : «إنا أعطيناك الكوثر». (خوان بانيرا)

(١٥) أمارى، المكتبة العربية الصقلية، ص ٥٨٣.

نفسه أو حوله، وأسود يتدفق الماء من أفواهها كما فى الحمراء، والصورة الكاملة أن تكون فى هذه القصور ساحات تحيط بها أروقة وقاعات مجاورة، تبرق حيطانها بالقيشانى، وتتدلى من قبابها صور بديعة، معلقة فى السطح.

● قصر العزيز :

ويذكر البولونى الإيطالى ليائدرو ألبرتى Leandro Alberti فى وصفه لصقلية ثلاثة قصور إسلامية تقع على مسافة ميل من بالرم اثنان منه كانا خرائب وأنقاضًا حين زارها فى النصف الأول من القرن السادس عشر، على حين بقى الثالث سليمًا. وقد وصف ألبرتى هذا القصر الأخير عرضًا : يدخل إليه المرء من باب عليه عقد مذهب، فيواجه قاعة يعبر منها خلال باب آخر مشابه للأول إلى مكان مربع مسور، توجد فى ثلاثة من جوانبه محاريب صغيرة، ويمتد فوقه سقف فى شكل قبة. وفى هذا الفراغ، وأرضه وجدرانه مغطاة بالرخام، توجد نافورة تدفع بمياهها فى حوض من الرخام أيضًا، وفوق النافورة يوجد نسر من الفسيفساء، وطاووسان، ورجلان مع كل منهم قوسه، ويوجهان سهامهما إلى الطائرين. وثمة جداول بديعة تحمل هذه المياه إلى أحواض أخرى متناثرة هنا وهناك، ثم تنتهى كلها إلى بركة أمام القصر فيها أسماك.

وإنه لممتع حقًا، فيما يرى ألبرتى، أن تسمع هذه الموجات الطرية العذبة فى وشوشة دائمة، تمضى مشرعة إلى أسفل، عبر قناة من حجر عملت فى دقة، تتخللها صور جميلة، صنعت من الفسيفساء، وتمثل فى الجانب الأكبر منها أسماكًا تبرق فى الماء. وهذا الرسم يقودنا إلى أن نتعرف على «الفيلا» الموجودة الآن، وتحمل اسم زيسا La Zisa وهو تحريف لكلمة العزيز اسمها العربى الحقيقى. ويوجد هذا القصر فى ضيعة أوليفوزا Oilvuzza الملاصقة لحدائق بوترا Butra وسرديفالكو Serradiwal الجميلة، وشكله مستطيل ومرتفع وجدرانه الخارجية مقسمة إلى ثلاثة طوابق، تُعرف بالنوافذ والمحاريب، وفى المحاريب عقود تقترب من شكل العقود المدببة. والنقش القديم، وكان فى عهود خلت يحيط بالأفريز، تكسَّر اليوم كممر إلى عدة أجزاء، ومع ذلك يتيح لنا رغم تكسره أن نرى أصل

العمارة من داخلها عند النورمانديين. ومع ذلك فقد البناء كثيرًا من صورته الأولى، ويقوم سحره لمن يراه اليوم على المناظر الرائعة التى يشرف عليها، ويستمتع بها من يطل من أعلاه، وهى شىء لا يجاريه إلا روائع غرناطة. ولكن من يأمل أن يجد فى قصر العزيز حمراء صقلية فسوف يحس بخيبة أمل كبيرة، لأن رواق الطابق الأسفل فحسب، يتفق فيما هو جوهرى، رغم أنه مهدم، مع الصورة التى رسمها له ألبرتى.

أما الزخارف فجاءت فى شكل هوابط تتدلى من قباب المحاريب التى فوق النافورة، ونقوش على الحائط الذى فيى المدخل، وعدد من الزخارف العربية المتشابكة، وكلها تعود إلى أيام العرب دون شك، غير أن الفسيفساء الذى يصور الطاووسين والصيادين يعود إلى عصر النورمانديين. وفى مدخل الطابق الأعلى قاعة كبرى مربعة، ذات أعمدة تصل بين غرف متعددة، غير أن هذا الجانب كله من العمارة لا يحتفظ من بنائه الأول إلا بالقليل جدًّا.

وطبقا لألبرتى كان فى وسط البركة، وهى مهدمة أيضًا، وتوجد أمام الباب الرئيسى وتستمد مياهها من نافورة الساحة، قاعة مربعة ترتبط مع حافة البركة بجسر من الحجر، وهذه القاعة تضم بهوًا صغيرًا به نافذتان، وغرفة أخرى للنساء بها ثلاث نوافذ، وفى وسط كل نافذة عمود من الرخام ينهض عليه عقدان، ويأخذ سقف الغرفة شكل قبة مغربية جميلة، ويكسو أرضها بلاط من الرخام، وعبر درج من الرخام أيضًا يمكن أن يجرى الماء هابطًا، وحول البركة حديقة جميلة، تحفل بأشجار الليمون والحور والبرتقال، وأشجار أخرى مثمرة.

ويضيف ألبرتى: «وما زلنا نرى حتى اليوم فى تلك الأطراف كثيرًا من الأنقاض، وبعض الغرفات والجدران، ومنها يمكن أن نستنتج أن المكان شهد فى عصور أخرى عمارة جميلة. وأعتقد، فى الحقيقة، أن كل إنسان يفكر بشرف سوف يتغشاه ألم عميق حين يتطلع إلى هذه الآثار، فإذا هى خرائب متهاوية فى جانب منها، وفى طريقها إلى الانهيار الكامل بقية الجوانب الأخرى»[١٦].

(١٦) Leandro Alberti, Isole oppartenenti alla Italica, apéndice a su Descirizione di tutta Itali, Venecia 1567 Page 53.

الأكثر احتمالا، فيما يبدو، وفى ضوء ما عرضته، أن قصر العزيز الريفى، كان مجرد بقايا فحسب، من مجموعة قصور عظيمة، يحتوى كل واحد منها على كثير من الغرف والقاعات والأبراج والحدائق والساحات. وفى غيبة الأخبار المباشرة المتصلة بحالة قصور صقلية هذه، أيام أن كانت فى كامل عمارها، يمكن أن نعطى عنها فكرة تقريبية من خلال الصورة اللتى رسمها مرمول كربخال Marmol Carvajal لعدد من القصور فى شمال أفريقيا، فلا أحد يجهل أن قصور صقلية العربية لا تختلف كثيرًا، فيما هو جوهرى، عن القصور العربية الإسبانية، ولا عن مثيلاتها فى المغرب. يقول مرمول:

● قصور المغرب:

كل الأبنية القديمة، والبيت الملكى العتيق، جمعها مولاى عبد الله هنا من قريب، فى قصور فخيمة على امتداد أسوار القصبة، من القصر العتيق، وهو خلف المسجد الجامع، حتى البيت الملكى، ويصل إلى ميدان الشرق. وفى هذا المناخ بنى ساحات واسعة، وغرفًا بالغة الجمال والأناقة، حيث توجد نساؤه ومحظياته، كل واحدة منهن منفصلة عن الأخرى، ثم قصوره وغرفه شخصيًا، وما يتخذه من خزائن أو أمكنة للسلاح. وفى القصر الرابع أقام ثلاث قاعات منخفضة، ذات قباب مذهبة، وفى الوسط نافورة ماء، وبابان يفتحان على حديقتين جميلتين من الياسمين والغار والريحان، وأزهار أخرى كثيرة، فوّاحة الأريج، وبها طرقات تغطيها العرائش والأغصان المتشابكة، وتحيط بها حواجز متشابكة صنعت من الخشب، ورءوسها من الحديد، وفى حديقة منها يوجد حوض من الماء فى شكل بركة، طوله أربعون برًا، وعرضه يزيد على ١٠ برا[١٧]، ويعلوه كثير من القيشانى، وإليه يذهب الملك للسباحة فى الصيف. وهذه البركة عميقة جدًا، وذات يوم كان مولاى عبد الله، وهو الذى يحكم الآن،سكرانًا فسقط فى البركة، وأوشك أن يغرق لولا أن أسرعت نساؤه لإنقاذه، ولهذا أمر بأن يقلل من عمقها، وأن تصبح بالقدر الذى يستطيع المرء أن يسير فيه بيديه ورجليه دون أن يغطيه الماء. ويوجد فى القصر

(١٧) برا Vara أداة قياس أسبانية قديمة وتساوى ٨٣,٦ من المتر. (المترجم)

قبتان أيضًا يطلق عليها اسم المقصورة، وفيهما تتم مقابلات الملك، فى الأولى يلقى رعيته، يستمع إليها علانية، وتراه شخصيًا. وفى الثانية يجتمع كبار مستشارى البلاط فى هيئة مجلس بحضور الملك لدراسة القضايا الهامة، وكلتاهما صنعت بطريقة يتاح معها فتح الأبواب فى الجوانب، فتظهر فى الجزء الداخلى ممرات جميلة مذهبة، حيث يقترب الناس لكى يعرضوا قضاياهم، ويسمعون ما يتصل بها، ولكن لا يمكن الولوج إلى الداخل إلا عبر بابين صغيرين، حيث يوجد البوابون من حرس الملك، وحول القبتين مساحات واسعة فيها نوافير جميلة يتدفق منها الماء، وفيها كثير من أشجار البرتقال والليمون والريحان، ويتنزه خلالها عامة الناس فى اليوم الذى خصصه الملك للمقابلات العامة.

● آثار عربية أخرى:

وعلى شمال الطريق الذى يمتد من بالرم إلى مونريالسMonreales يوجد مربع تحيط به جدران عالية، أقيمت من أحجار خشنة. نُحتت فى إتقان، وتزيّنها محاريب فى الجزء الخارجى، وبعض عقودها تميل إلى أن تكون مدببة، وتجعل منه الروايات قصرًا إسلاميًا. وورد فى أدب بوكاشيو[١٨]، فى الرواية السادسة، من اليوم الخامس تحت اسم القبة[١٩]. وداخله مشوه، وقد تهدم كله تقريبًا، وبالكاد يقدم شيئًا ذا أهمية، إذا استثنينا قطعة مدلاة، بقيت فى القبة الخربة. والبهاء القديم الذى كان يشع من هذه القبة[٢٠] تلاشى فى الجانب الأكبر منه، فى النصف

(١٨) انظر تعريفًا ببوكاشيو وبروايته هذه، فى كتاب: الدكتور الطاهر أحمد مكى، القصة القصيرة، ص ٤٨، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم)

(١٩) قدم لنا الإنجليزى وندوس Windus فى كتابه رحلة إلى مكناس، ص ١١٣، تعريفًا بالقبة المذكورة: توجد فى القصر غرف كثيرة، تسمى كل واحدة قبة، وهى مربعة والجدران من الخارج ملساء، باستثناء الواجهة، والتى تحتوى على خمسة أو ستة عقود، والداخل قاعة كبيرة، أرضيتها، وجدرانها حتى ارتفاع قامة رجل مرصعة. وهى مزخرفة بفن، ومذهبة بثراء، والسقف مغطى بالقرميد الأخضر، وترتفع كهرم». (دوزى، بنو عباد ١/١٤٢).

(٢٠) ليس موضع شك فيما يبدو أن لفظ alcoba القشتالى مأخوذ من كلمة القبة العربية، وليس له معنى آخر فى هذه غير ما يفهم منه فى القشتالية، ويحدده المستشرق الانجليزى لين فى هوامشه على «ألف ليلة وليلة» بأنها غرفة صغيرة إلى جانب القاعة، وتعميما بلا شك أطلق اللفظ على القاعة التى توجد بها القبة. وأحيانًا يستخدمون اسم تربيعة، ويستخدمه أمادور دى لوس ريوس، ومستشرقون آخرون، ومعناها قاعة مربعة، ودخل الاسبانية فى صورة rarbea، وترجم إليها أيضًا، واستخدمت الترجمة، فيقال «لاكوادرا La Cuadra» أى التربعة، كى يقول=

الثانى من القرن السادس عشر الميلادى، ولم نعد نعرف عنه إلا ما يصفه فزللو Fazello.

«يوجد القصر فى داخل بالرم، ويمتد بستانه خارج أسوار المدينة بما يقرب من ألفى خطوة، وكانت هذه البساتين تفيض بكل ألوان الشجر، وتتناثر فيها نوافير لا تتوقف، وتنتشر هنا وهناك أكام الريحان والغار. وثمة رواق طويل هناك، يمتد من المدخل حتى باب الخروج، به قباب كثيرة مفتوحة من كل الجوانب لكى يستريح فيها الملك ويخلو إلى نفسه، وإحدى هذه القباب بقيت سالمة حتى أيامنا هذه[٢١].

وفى وسط الحديقة يوجد حوض كبير، أقيم من كتل حجرية صلبة، وكان يضم بين جوانبه أسماكًا كثيرة، وقد بقى الحوض سالمًا حتى يومنا هذا، لم تصبه يد الدمار فى شىء، ولا ينقصه إلا الماء والأسماك. وهناك، قريبًا منه، كان يرتفع، ولا يزال قصر الملك الريفى الرائع، وبأعلاه نقش إسلامى، وهذا المكان لا ينقصه شىء لكى يبلغ الترف الملكى فيه غايته، حتى أن جانبًا من الحديقة كان يضم حظائر وأقفاصًا للحيوانات المفترسة من كل الأنواع، لكى تُسلى وتمتع سكان القصر. ولكن ذلك كله تهدم اليوم، وحلت مكانه كروم العنب، وجنان مثمرة لأناس آخرين. وكل ما يمكن أن نتعرف عليه جيدًا سور الحديقة فحسب، لأن الجانب الأكبر من الجدران بقى دون أن تمسه يد الاتلاف. وكما كان يحدث فى القديم، فإن أهل بالرم يطلقون على هذا المكان اسمًا عربيًا: القبة[٢٢].

= مؤلفونا القدامى، وفى كثير من نواحى الاندلس تطلق حتى اليوم على أفضل قاعة فى البيت، وتكون عادة مربعة، ولكن كلمة «لاكوادرا» بهذا المفهوم أخذت فى الاختفاء، وأصبحت تطلق على الاسطبل، وأنه لجدير بالإشارة أن لفظ تربيعة، والحركة alharaca، والتوريقataurique، والازار alicer، والقرضة alfardaومصطلحات أخرى كثيرة تتصل بالمعمار العربى، بدأت تبعث من جديد فى لغتنا. (خوان بالبرا)

(٢١) طبقا لامارى، فى مجلة المعمار، ١٨٥٠، ص٦٧٨، فإن هذه القبة كانت لا تزال موجودة فى عام ١٨٤٩ م، وفى عام ١٨٦٤ حاولت عبثًا أن أجدها، ولكنى علمت بعد ذلك من مغرم بالفنون، زار بالرم فى الحقيقة عدة مرات قبل، أن هذه القبة كانت تقع فى بستان مسور، على جانب الطريق الذى يؤدى إلى مونريال. وحيث أنا لم اتعمق فيه.

(٢٢) Fazellus, en Rer. Sic. Scriptores, 157.

والنقش الذى كان يوجد على إفريز الجدار فكّت معمياته من قريب، وهو يحمل اسم جيوم الثانى، وتاريخ عام ١١٨٢ م[٢٣]، ومع ذلك لا نزال نشك فى ما إذا كان جهد الملك النورماندى وقف عند ترميم البناء القديم، وتزيينه بهذا النقش، على حين أن بقية هذا النباء العظيم، ومنه هذه القبة، وهى لا تمثل غير جزء يسير، كانت من عمل العرب.

وثمة حمامات عربية فى حالة متوسطة تشاهد الآن فى شفلا Cefala على بعد ثمانية عشر ميلا من بالرم، وتوجد أيضًا أطلال قصر ريفى عربى فى بوكادفلكو Boccadifalco. وأخيرًا فإن مبنى قديمًا فى وادى جوادينا Guadagne، إلى جانب بالرم، ويدعى عادة برج ديافلو Diavolo، وينسبه الناس إلى العرب. وهو جدار مرتفع، وأربعة نوافذ مع عقود مدببة، ولكنها لا تحمل أية دلالة خاصة تومىء إلى الفن الشرقى.

● مساجد صقلية :

وأشد ندرة من الأخبار التى لدينا عن القصور والبيوت الريفية العربية فى صقلية ما اتصل منها من بيوت الله، أو ما بقى منها. ويصف ابن جبير مسجدًا يقع على مقربة من بالرم بأنه مستطيل الشكل، تحيط به أروقة ذات أعمدة[٢٤]، ومهما يكن هذا الوصف قاصرًا أعتقد أننا نستطيع الآن أن نتعرف منه، بين بقاياه الغائمة، على الصورة الأصلية للمسجد، والتى تحدثنا عنها، وهو صحن واسع يحيط به ممر متسع، يحتوى على عقود وأعمدة. ولا نعرف أى شىء عن حالة المسجد الجامع فى بالرم، غير أن الرحالة الأدريسى يطرى ثراء زينته وزخارفه والنقوش والمذهبات[٢٥].

وكان هذا المسجد فى الأصل كنيسة[٢٦]، كما كان الحال فى مسجدى دمشق

---

(٢٣) الكلمات الواضحة هى : «بسم الله الرحمن الرحيم». اعتبر، قف، وانظر، فسترى عملا رائعًا ينتمى إلى جيوم الثانى، أعظم ملوك الأرض. (المجلة المعمارية، باريس ١٨٥٠، ص ٦٨١).

(٢٤) ابن جبير، طبعة رايت، ٣٣٤.

(٢٥) أمارى، المكتبة العربية الصقلية، ص ٢٩.

(٢٦) ابن حوقل، فى المكتبة العربية الصقلية ص ٤.

وقرطبة، وفيما بعد أعيد بناؤها، دون شك كهذه ثم خصصها النورمانديون للعبادة المسيحية، وأخيرًا تهدم فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى[٢٧]، ولم يبق اليوم فى الكتدرائية، والتى تشغل المكان نفسه، وعانت كثيرًا من التغيير والتبديل، وبخاصة فى الداخل، أى جزء أساسى من البناء القديم، إلا بعض الأعمدة، ربما فى الجانبين الجنوبى والغربى.

Fil-loġġa tal-"Cortile Maqueda" fil-palazz Irjali ta' Palermu, wieħed jilmaħ imwaħħla mal-ħajt irħama bajda bi tliet kitbiet: Latin, Grieg, u Għarbi. Din tfakkar l-arloġġ tal-Għarbi-Malti li fis-sena 1142 kien għamel lir-Re Ruġġieru II.

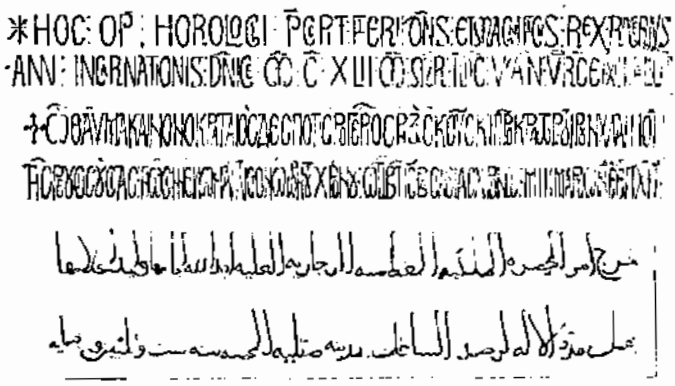

ظلت الأوامر الملكية فى صقلية تصدر باللغة العربية إلى جانب اللغات الأخرى، حتى بعد استيلاء النورمانديين عليها. والنقش أعلاه صورة إعلان فى ميدان عام، باللغات اللاتينية، واليونانية، والعربية، ونصه: «خرج أمر الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العليه أيّد الله أيامها، وأيّد أعلامها بحمل هذه الالة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثلثين وخمسماية»

وبفضل سياسة التسامح التى انتهجها الملك روجر وخلفاؤه من بعد، ووجدوا أنفسهم مضطرين لتطبيقها فى وطنهم، ويسكن المسلمون الجانب الأكبر منه، بقى كثير من مساجد صقلية فى قبضة المسلمين خلال الفترة الأولى التى تلت استيلاء

(٢٧) Amato De principe templo panormitano.

النورمانديين على شبه الجزيرة، ولكن مساجد أخرى على العكس، كان حظها حظ المسجد الجامع، فتم تحويلها إلى كنائس، مع تغييرات تهدف إلى تطويعها لتوائم الطقوس المسيحية. وإذن من السهل كثيرا أن تبقى أجزاء من المساجد فى الكنائس الصقلية الحاضرة، وهذا الظن يبلغ حد التأكيد تقريبًا فيما يتصل بكنيسة سان جيوفانى التى تقع قريبًا من القصر الملكى فى بالرم، والمحاريب الصغيرة الأربعة فى هذه الكنيسة تحمل الطابع الشرقى كاملا، والواقع أن هذه المحاريب كانت خمسة من قبل، وأقيم فى مكان واحد منها برج ناقوس الكنيسة، مما يؤكد، فيما أرى، فكرة أن أصلها عربى، ومن المؤكد أن هناك وثائق تسمى الملك روجر مؤسسها، ولكن مثل هذه التأكيدات لا ثقل لها، فلا أحد يجهل أن العصور الوسطى تعرف الكثير من الحالات التى ينسب فيها إقامة البناء لمن وسَّعه، أو رمَّمه، أو جمّله فحسب.

● القصور الملكية :

كانت مدينة بالرم فى عصرها الإسلامى تضم حصنين رئيسيين، الأقدم منهما يدعى القصر تمييزا له، وكان مقر إقامة الأغالبة، ويقع فى المكان الذى يحتله القصر الملكى الآن، ويرتبط بالمسجد الجامع كما هو الحال فى مسجد قرطبة، بطريق مغطى. وأما الآخر ويسميه العرب Jalesa، ويجاريهم فى هذه التسمية فلكاندو مريس فقد بناه الكلبيون وأقاموا فيه، ويقع على شاطئ البحر. وبعد أن استولى النورمانديون على المدينة اختار الكونت روجار الأقدم منهما، وهو حصن الأغالبة، ليكون مقرَّ إقامته، وفيما بعد ظل مقرًّا لخلفائه من بعده[٢٨]. ولم يبق لنا أى وصف عن هذا القصر فى حالته الأولى على أيام العرب.

---

(٢٨) فز لوس، ١٥٥ - فلكاندوس، ٦٣٩ - الإدريسى، فى المكتبة العربية الصقلية، ٢٩ - أمارى، تاريخ، ١٨٩/٢.

● قصر الخليفة فى القاهرة :

ولكن رواية جيوم دى تيرو تقدم لنا فيما يبدو فكرة عامة عن حالة القصور الشرقية الفاخرة. ويصف لنا مؤرخ الحروب الصليبية قصر الخليفة فى القاهرة على النحو التالى :

«دار هذا الأمير لها نظام خاص، لا يعرفه أى بيت آخر فى أيامنا هذه، ولهذا أود أن أقيد هنا، بعناية فائقة، كل ما استطعت فهمه من خلال العلاقات الخاصة عن ثرواته العظيمة، وترفه وعظمته، لأنه ليس مزعجاً بالضرورة أن نفهم كل هذا بدقة». وعندما ذهب هوجو سزاريا Hugo de Cesàrea ومعه جوفريد من فرسان الداوية، لأول مرة إلى القاهرة ليؤديا مهمتهما سفيرين، أدخلتهما إلى القصر جمهرة غفيرة من الخدم، تمضى أمامهما كاملة السلاح، مع ضجة وصخب هائلين، وعبرا ممرات ضيقة، وأماكن مظلمة تمامًا، وفى كل ممر كانا يلتقيان بجمهرة من الأثيوبيين المسلحين، يحيون السلطان فى إيمان، وأخيرا وصلا إلى القصر، وبهذا الاسم يعرفونه فى اللغة العربية، وبعد أن مرّا بالحراس الأوائل، وبالطائفة الثانية منهم، وجدا نفسيهما فى مكان رحيب عريض، فى الهواء الطلق، وتغشّاه الشمس. وهناك وجدا رواقًا يتمشيان فيه، ويستريحان فوق اسطوانة من الرخام، سقفه مذهب، وهى مزخرفة بفن دقيق، والطابق مزين بألوان عديدة، وكل ما فيه يعكس عظمة ملكية وترفًا رفيعًا. وكل شيء جميل مادة وصنعًا، يخطف الأبصار بريقه، ويرغمها على النظر فيه، ولا تستطيع من تأمله فكاكًا. وهذا الجمال سحر كل أولئك الذين رأوه فى تلك الأيام.

«وكانت هناك بركة من الرخام مليئة بالمياه الصافية، وحولها الطيور من كل الأنواع، وهى ليست معروفة عندنا، غريبة الشكل والريش، وذات منظر بالغ الروعة، وبخاصة لنا. ومن هناك حملنا الخصيان إلى غرفة أخرى تزيد كثيرا فى جمالها عن التى سبقت، وتشبه تلك التى رأيناها أولا. وهناك مجموعة كبيرة من الحيوانات غير المستأنسة، وأخرى من ذوات الأربع مختلفة الأنواع، أشياء لا تتأتى إلا فى خيال فنان عبقرى الريشة، أو شاعر متوهج الإبداع، أو روحا يحلم، وكلها

يمكن أن تصبح رؤيا منام، وهو ما لا يحدث إلا فى أرض المشرق والجنوب فحسب، ومثلها لا يرى فى الغرب أبدا، ونادرا ما يتحدثون عنها».

«وبعد ضجيج صاخب، وعبر غرف كثيرة، وصلا أخيرا إلى القصر الملكى نفسه، حيث توجد شرذمة من المسلحين، وجمهرة من الخدم، وعدد آخر من الحاشية، يشون عددا وملابس بعظمة سيدهم التى لا مثيل لها، وكل شىء يومئ إلى ثروته، ويلمح إلى امتلاء خزائنه. وعندما أدخلا بهذه الطريقة، ووجدا نفسيهما وسط القصر، أظهر السلطان الاحترام المعتاد لسيده، مستلقيا على الأرض مرة ومرة، وموقرا له ومبجلا، كما لم يظهر أحد وقاره لآخر من قبل. ثم استلقى على الأرض للمرة الثالثة، وألقى سلاحه، وكان معلقا فى رقبته، وفجأة، فى سرعة خاطفة، انحسرت الستائر المزينة بالذهب والجواهر الغالية، وكانت مرفوعة فى الوسط تخفى كرسى العرش، فظهر الخليفة جالسا، حاسر الوجه، فى ملابس أكثر من ملكية، وعلى عرش من الذهب، ويحيط به عدد محدود من الخصيان يخدمونه، وحينئذ اقترب منه السلطان فى وقار عميق، وقبل قدميه فى تواضع»[٢٩].

● **قصر الأغالبة:**

لا يبدو أن قصر الأغالبة فى بالرم كان فى روعة وترف قصور خلفاء مصر فى القاهرة، ولعله كان خرائب حين استولى عليه روجر، وقام هذا وخلفاؤه من بعده بعمل ترميمات وتعديلات وتحسينات كثيرة فيه، ولكن التشابه بين قصر النورمانديين والقصور المشرقية يبدو أشد وضوحا فى أوصاف أخرى وصلتنا، كالمعلومات التى أوردها عنها الرحالة ابن جبير، فهو يتحدث عن الحدائق الكثيرة، والأروقة، والقاعات، والسقوف، والساحات، كما يتحدث أيضا عن ساحة تحيط بها قاعة ذات عقود وأعمدة، وفى وسطها بهو، وهو فى هذا يتفق مع فلكاندو فى وصفه للقصر نفسه حين يقول:

«كل شىء بُنى من كتل حجرية، صنعت بمهارة فائقة، وفن دقيق، تحيط به أسوار عريضة من الخارج، أما فى الداخل فيبرق بهاء وترفا، وذهبا ومجوهرات.

(٢٩) Guielmi Tyrii, Belli Sacri historia. t XIX, ap. XVII.

هنا ينهض برج على طراز بيزى[٣٠]، حيث تحفظ الخزائن الملكية، وهناك البرج ذو الطراز الإغريقى الذى يسيطر على جانب من المدينة، ويدعى خمونية Khemonia، ويزين الوسط ذلك الجانب الذى يطلق عليه اسم «جوهرية»، وهو غنى بالزخارف الدقيقة، وكل شيء فيه يلمع بقوة، وعمل فى إتقان، وتعوَّد الملك أن يقضى ساعات راحته فى هذا الجانب. والفراغ الذى على الجوانب مقسم إلى غرف عديدة للجوارى والخصيان الذين يخدمون الملك والملكة. وتوجد هناك أيضا عدة قصور صغيرة كثيرة، تنبض ترفا مصقولا، يلتقى فيها الملك سرا بمستشاريه ليتداول معهم فى شئون المملكة»[٣١].

لا بد أن هذه العظمة كلها قد اختفت سريعا، فبعد قليل من الصورة اللامعة التى رسمها فلكاندو للبهاء العربى النورماندى فى بالرم اجتاحت الحرب المدمرة جزيرة صقلية وحولتها إلى خرائب وأنقاض من جديد. والغضب الحانق الذى حمى به انريك الرابع ادعاءات أسرة هوهنشتاوفن Hohenstaufen فى عرش صقلية، واستيلاء الفرنسيين الفورى المرعب، والثورات، والإطاحة بالعروش التى جاء بها معه، أتت تدميرا على كل ما احتفظ به النورمانديون من الفن العربى، حتى أن رفاتهم يستريح اليوم مقبورا تحت طبقة مزدوجة من الخرائب والأنقاض، ولقد تنبأ مؤرخ صقلية العظيم بهذه العاصفة المدمرة، حين باح بهذه الكلمات التى جعلها مدخلا لتاريخه:

«لكم تمنيت يا صديقى لو أن خشونة الشتاء القارسة أفسحت الطريق أمام نسائم الصبا الحلو، فأكتب لك شيئا مرحا ولطيفا يجيئك كباكورة الربيع الوليد، ولكن مع وفاة ملك صقلية من قريب، وإذا أخذنا فى الاعتبار المشكلات السياسية المعقدة والسيئة التى أعقبت بالضرورة موته، فإن الحادث كان محزنا، ومثيرا للشجن، ولا نملك بإزائه غير أن نجهش بالبكاء. وعبثا تحاول السماء الساطعة، وقد صفت من جديد، أن تدفع بالغبطة والبهجة بين جوانحى، كلا!، ولا منظر الزهور الجميلة، والحدائق اللطيفة. ومثل الطفل لا يمكن أن يرى أمه تموت وعيناه

---

(٣٠) نسبة إلى بيزا Pisa مدينة إيطالية.

(٣١) Falcando, 639.

جافتان بلا دموع، لا أستطيع أن أفكر، دون دموع، فى الخراب الذى ينتظر صقلية، وقد تلقتنى فى بهجة غامرة، وعلى أرضها نشأت، ومن خيرها تكونت. وأخالنى أرى أفواج المتبربرين الأقوياء يجتاحونها فى نهم شره عنيف، وسوف تجفف المذابح ثراء مدننا، وازدهار أقاليمنا، ويأتى عليها السلب والنهب، وتلوثها جرائمهم».

«آى!، يالى منك يا كتانيا Catania»[٣٢].

«كم مرة وقعت جريحة سوء الحظ، ولم تستطع آلامك أن تهدىء من غضبه، ولقد عانيت من كل شىء، من الحرب والطاعون، والزلازل وبراكين إتنه Etna، وبعد كل هذا تتعرضين الآن لأسوأ أنواع الشرور: الاسترقاق!».

«يالى منك، يا نبع أرتوسا Aretusa الشهير[٣٣]! أى عار يثقل كاهليك!، أنت الذى صحبت يوما أغانى الشعراء بخريرك الموقع، ووشوشاتك الجذابة، عليك الآن أن ترطّب نشوة العهر الألمانى، وأن تعرض نفسك متعة لرجسهم!».

«والآن أعود إليك، يا مدينتى الشهيرة، قمة ومجد كل صقلية!، كيف يمكن أن أمضى صامتا إزاء مفاتنك وسحرك، وكيف يجب أن أطريها بما يكفى»!

وهنا يضع فلكاندو رثاء مدينته العزيزة، وأتينا عليه فى مكان آخر، ويختمه أخيرا بهذه الكلمات: «كل ما أشرت إليه فى إيجاز ليكون معروفا. كم من الزفرات أرسلت، وما أغزر الدموع التى يجب أن أذرفها، ليكون حزنى على هذه الجزيرة فى مستوى ما تستحق».

● المعمار العربى فى مالطة:

وفى مالطة المجاورة لصقلية، ومثلها جزيرتا بنتلارية Pantelaria وجوزو Gozzo، وجزر أخرى سقطت كلها بعد فتح صقلية فى قبضة المسلمين، وفيها تجلى

---

(٣٢) كتانيا: ميناء فى صقلية، وعاصمة مقاطعة تحمل هذا الاسم. (المترجم)

(٣٣) نهر مقدس فى الميثولوجيا الإغريقية، وهو حورية البحيرات والجبال وأحبها ألفيه، وهو نهر آخر مقدس. (المترجم)